نضال بين نزعتين

عصور تفكير العلماء اليوم

يقول هولبروك جاكسون الكاتب الاجتماعي الانكليزي في بحثه يتناول الحياة في العصر الحاضر « ان المجتمع الحديث عبارة عن عقدة من الآراء المتضاربة في الاحساس والتفكير ... واننا قلما نجد في هذا العصر ، مثل ذلك الصفاء أو الصحو او الثقة التي نعرفها عن الحياة الاجتماعية إبان المدنية الاغريقية مثلاً ، إذ أن الافكار — في ذلك الحين — كانت على اختلافها متصلة بالحياة اتصالاً وثيقاً مباشراً ، بينما نرى الآن ، أن معظم النظريات الاجتماعية تكاد تتناقض في تطبيقها — مع الحياة العملية في هذا العصر ... »

وقد تناول هذا الكاتب في بحثه معنى الحرية التي يكافح الناس من أجلها منذ بدء الخليقة إلى اليوم ، فهذه الكلمة التي من أجلها اشتعلت الثورات ودكت عروش وقلبت حكومات وتغيرت معالم دول ، وتفرغ العلماء والكتاب في مختلف العصور ، لوضع أسسها وتثبيت دعائمها ، لا تزال بعيدة عن متناول الانسان بمعناها الأسمى حتى عند اكثر الامم رقيًّا

وهذا الكاتب لا ينادي بثورة سياسية او اجتماعية فقد جرّب الناس كل انواع الثورات ، ولكن الثورة التي ينادي بها هولبروك جاكسون ، انما هي ثورة داخلية في نفس الانسان ، على مثال المبدإ الذي عناه ابسن في كافة كتاباته تقريباً . فلقد كان ابسن يدعو إلى « ثورة في صميم النفس الانسانية » وهو — أي هولبروك جاكسون — يفسر هذه الثورة بجملة خالدة للكاتب الامريكي مارك توين « لا تتنبأ او تقبل شيئاً الا اذا عرفتهُ واقتنعت به »

فنحن على الرغم مما بلغنا من الرقي في الناحية الصناعية والظواهر الاجتماعية لا نزال ارقاء لبعض العادات والتقاليد الموروثة ، بينما طغت المادية على أنبل عواطفنا . فاما العادات والتقاليد — ويجب الاّ نقرن تلك العادات او التقاليد بالدين فان هذا لون من التخبط لا معنى له — فيمتد تأثيرها الى شل التفكير الصريح . فقد يحدث احياناً أن يخفي انسان بعض ما يشكو منهُ لمجرد الوهم او الانتقاد او الخجل ، ومن هذا المثل نستطيع أن نقرّب الى الفهم معنى كلمة الحرية التي يدعو اليها العلماء في العصر الحاضر ، فهم لا ينادون بثورات يروح ضحيتها الوف من البشر لصالح طائفة صغيرة من الناس ، فان تلك الثورات على الرغم من بريقها ، وما فيها من اغراء وتحريض ، لا تسعد كل انسان ولا تمتعه بحريته السامية التي يصبو اليها ، ولكنهم يدعون الى تحرير النفس ، وتحقيق الاستقلال والحرية الفردية

يقول باسكال « ليس من الخير ان ننال الحرية كلها ، او نحصل على كل ما نشتهي » وفي

هذا القول تحديد لمعنى الحرية التي اسبقنا التحدث عنها . فان الحرية الشخصية للانسان اساس النظام الاجتماعي ؛ والحرية المطلقة هي الفوضى . وليس أدلّ على ذلك من قول تشترتون في الثورات ، فهو يقول بان الثورة الروسية — بشكلها — جاءت طائشة ؛ لان اكثر رجالها اغبياء ؛ ولان تلك الثورة جاءت متأخرة عن عهدها الصحيح اذ كان يجب ان تشب قبل ذلك بمائة عام ، ولو ان الثورة جاءت في عهدها لما حملت كل هذه الاخطاء التي توصم بها اليوم ، والتي أفسدت معناها الاجتماعي . وفي الواقع ان رجال الثورة دائماً لا ينفعون امتهم من الناحية الاجتماعية ، وهذا ما رأيناه في فرنسا ، إبان ثورتها العظيمة ، فان روبسبيير ودانتون ومارا ، وغيرهم من اعلام الثورة ، لم يفيدوا فرنسا فائدة صحيحة ، بل كان عملهم مؤقتاً شاذاً ؛ ولقد توصلوا الى تحقيق معاني الثورة بالتهديد والبطش وسفك الدماء بدون حساب وان كان هناك ما يسوّغ بعض أعمالهم الدموية . الاّ ان عهدهم لم يطل ، وأكل بعضهم بعضاً ، وذلك لانهم تمادوا في فهم معنى الحرية ، حتى بلغت زعامتهم حد الطغيان والغرور والفساد والطيش وهذا ما نراه في روسيا . فان رجال السوفيت اليوم يعملون بكل قواهم للتنكيل بالأديان وتشتيت رجال العهد القديم ، وقلب النظم الاجتماعية كلها رأساً على عقب . ولا تزال روسيا — بتقرير اكثر الكتّاب والعلماء الذين عالجوا حياتها الاجتماعية مثل ولز وشو وبرتراند رسل ودورا رسل وغيرهم — تعاني اضطراباً نفسياً واجتماعياً ، هو نتيجة ما يلقيه رجال الثورة الحاكمون من الرعب والبطش والمداهنة والخطب المشبعة بالالفاظ النارية والجماهير منقادة اليهم ، وفقاً لوعودهم . ولان زعماءهم يلهبونهم بذكريات الماضي ، ويغذون زعامتهم بتلك الذكريات . ولهذا فان الجيل القادم في روسيا ، كما رأينا في فرنسا من قبل ، لا يمكن أن يحكمه متطرفون في الرأي والنزعات السياسية والدينية من طراز ستالين ومجلس ادارة الحزب الشيوعي الحاضر في روسيا ، كما هو الحال اليوم . إذ أن عهد « الانتقام الاكبر » لم يأته بعد ، وسيحل بعده رجال يوفقون بين معنى الحرية والنظم الطبيعية — كما نرى في فرنسا في هذا العصر

***

ومن أهم الظواهر التي تبدو في هذا العصر أن اكثر العلماء أهملوا إلى حد ما مباحثهم العلمية الخالصة واتجهوا الى المباحث الاجتماعية ، وقد ذكر ذلك البروفسور هالدين فقال ان اكثر المشتغلين بالمسائل العلمية ، يعنون عناية واضحة بالمسائل الاجتماعية . والسبب في ذلك لا يعزى الى الازمة المالية فحسب ولكنه يعزى الى الازمة الاجتماعية . وما نشأ عنها من الظواهر المختلفة عند الطبقات . ولقد عالج الدكتور جون ميللر وهو من كبار العلماء في امريكا هذه الناحية في بحث مستفيض منذ عام ، فقال ان الشكوى السائدة في هذا العصر أساسها اننا لم نعن برقينا الصناعي والاقتصادي من ناحيته الاجتماعية . فبينما نرى اننا قد ارتقينا في أحوالنا الصناعية

بصنع السيارات والطيارات واللاسلكي وغيرها ، نجد الى جانب ذلك جيوش العاطلين الذين يتكاثرون يوماً بعد يوم كنتيجة لاخطاء اقتصادية خطيرة ، وسيطرة الآلات ، وضعف التعاون بين الطبقات . والسبب في هذا يرجع إلى ان روح الطمع غزت النفوس الفجة . فتأثرت بذلك طبقات العمال في البيئات الصناعية . واذا أردنا ان نعرف فائدة تبادل المنفعة والتعاون الصناعي والاجتماعي ، ذكرنا — مثلاً — كيف يعنى فورد بذلك في مصانعه ، فهذا الرجل المالي الكبير يقرر النظم الاجتماعية والاقتصادية العادلة جنباً الى جنب ، ولذلك فان من النادر أن يجد الانسان في أعمال ذلك الرجل وهي أعمال واسعة جداً شيئاً من الخطأ أو الارتباك ومن ناحية أخرى فان عمّاله لم يلجأوا الى وسائل سلبية لتحقيق رغباتهم (مع ملاحظة ان الحركة الاخيرة التي قامت في مصانعه كانت نتيجة شبه مؤامرة من بعض مناهضيه ومنافسيه) إذ أن التعاون هو أساس العمل بين الطرفين . ولهذا فاننا نرى ان العامل يستطيع أن ينال حقوقه وأن يرضى بها وأن يستمتع بحريته كاملة دون أن يشعر بضغط أو حيف ودون ان يلجأ الى الاعتصاب او غيره من الوسائل السلبية

ولقد ذكر « صموئيل مشهوزن » في بحث له عنوانه (هذا العصر المريض) أن أكثر الامراض الاجتماعية في العصر الحديث ناشئة عن الاهمال والجشع والغرور وعدم العناية والواقع يؤيد ذلك . فاننا نعالج في كثير من الاحيان المسائل الاقتصادية ببعض المبادىء السياسية ، وهذا خطأ جوهري . وسبب هذا هو الافتقار الى التفاهم ورغبة فريق في الطغيان على فريق آخر . وطمع الفريق الاخير — الى حد الهوس — في الانتقام

لهذا نرى العلماء والكتّاب ، على اختلافهم ، نرى برنارد شو (وخاصة في كتابه الاخير المسمى مخاطرات الفتاة الزنجية وقد ملأه بالتهكم من المدنية وغيرها) كما نرى أيضاً وِلز وأينشتين والسر آرثر طمسن وغيرهم يعنون عناية صادقة في اصلاح بعض الاخطاء السائدة ، وتبسيط النظريات الاجتماعية حتى تتلاءم مع روح العصر ، وحتى تنجو البشرية قليلاً من طغيان المادية وما تهدد به مدنيتنا الحديثة . وهم يرون ان من الضروري ان تتغلب المبادىء الروحية في كثير من الاحيان على المبادىء المادية تخلصاً من الازمات والضيق والفساد الاجتماعي الحاضر

وهذه النزعة الروحية الاخيرة ، اقرب الى التصوف منها الى المادية ، وهي نزعة اسيوية بلا شك ، او بتعبير ادق نزعة سلافية سمية والفكر السلافي العميم يناقض الفكر الاوربي في كثير من نزعاته . ولا يرضى ان تنساق الانسانية في طريق الحيوانية والانانية والطمع والسيطرة المطلقة ، وزعيم هذا المبدأ الروحي في الوقت الحاضر هو الفيلسوف الروسي ليون شستوف وهناك غيره من زعماء هذا المذهب لايقلون عنه منزلة ورأياً في سبيل هذه الدعوة

محمود عزت موسى